ابن خلدون..
فلسفته الاجتماعية

الفصل الأوّل

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

حياة ابن خلدون

لا يَسْتلزم البحثُ في أثر المؤرخ مفصَّلاً عن حياته بحُكْم الضرورة، ولا تفكيرًا طويلاً في جزئيَّات سيرته، وإذا ما قام المؤرخ بعملِ مدوِّنٍ للوقائع أو واضعٍ للحَوْليات، على الخصوص، فاكتفى برواية الحوادث كما نُقِلَتْ عن الأحاديث الإقليمية أو المحلية أو بدراسة وثائقِ أحد الأدوار وجمعها ليَصْنَعَ منها قصةً كاملةً، لم يكن لتقلبات حياته غيرُ أهميةٍ استناديَّةٍ.

ذلك ما يكون عليه حال ابن خلدون إذا لم يُنْظَرْ إلى غير القسم التاريخيِّ الخالص من أثره، ويَتَكَوَّنُ من هذا الأثر وحدةَ عُنوانُ مَجْدٍ باهرٍ، فلولا أثرُ ابن خلدون التاريخيُّ لَجَهِلْنا اليوم ما كان عليه تاريخُ شمال إفريقية منذ الفتح الإسلاميِّ حتى القرنِ الرابعَ عشرَ، ولولا ابنُ خلدون لاقتصر جميعُ من يَوَدُّون جعلَ اتصالٍ هنالك بين آخر الإمبراطورية الرومانية والعهدِ البزنطيِّ والأزمنةِ الحديثة على فَرضيَّات، ولولا ابنُ خلدون لأعْوَزَنا على الخصوص، ما يجب وجودُه من العناصر الضروريَّة لتكوين فكرةٍ على شيءٍ من الصحة حَوْلَ ما كانت عليه الحياةُ في شمال إفريقية في أثناء الدور الوحيد الذي وُكِلَ أمرُها فيه إلى نفسها فعادت لا تكُونُ غيرَ ذاتِ صلةٍ نظريَّةٍ بالأمم الأخرى.

obeikandi.com

غير أن شأن ابن خلدون أعلى من شأن مُدَوِّنٍ للوقائعِ بمراحلَ، وذلك أنه أراد أوَّلاً، أن يُنْتِج أثر مؤرِّخٍ يُجاوزُ نِطَاقَ البلد الذي عاشَ فيه، فألَّف تاريخًا عامًّا يُعَدُّ عظيمًا وحيدًا في ذلك الزمن في دار الإسلام، غير أن ابن خلدون أراد على الخصوص، أن يَضَعَ أثرًا فلسفيًا أيضًا، بادئًا بتركيب معارفه التاريخيَّة، وكان هذا مشروعًا فريدًا لا مثيل له منذ عهد العظماء في الفلسفة اليونانيَّة، وقد شَعَر ابنُ خلدون بنقص التاريخ كما كان يُتَمَثَّلُ في زمنه، هذا التاريخُ الذي كان يقوم على سَرْد الوقائع والأسماء والأوقات، فَعَزم على الإرتقاء إلى معرفة ما نُسَمِّيه السُّنَنَ التاريخيَّة، وهو إذْ لم يَرْضَ بالرِّواية ولا بالتعداد أراد الفَهْم والإيضاح، وأراد الدَّلالة إلى أصل الأمم ومعرفةَ أسباب الحوادث وما يُمْكِن أن يكون بينها من تباينٍ وتماثل[1]، «داخلًا من باب الأسباب على العموم إلى الأخبار على الخصوص فاستوعبَ أخبارَ الخليقة استيعابًا.. وأَعْطَى لحوادث الدول عللاً وأسبابًا».

وتَنْطَوي هذه المحاولةُ بهذا النطاق، ولا سيما إذا كانت عَمَلَ رجلٍ جَهِلَ كما سنَرَى ما تم إنتاجُه في الأزمنة الأخرى من الآثار المماثلة، على شخصيَّةٍ فَذَّةٍ، وعلى مواهب مُبْدِعٍ عبقريٍّ، تكْفِي وحدَها لوَقْف النظر حَوْل تَقَلُّبَات حياته ما أَمْكَن التسليمُ، لا رَيْبَ بأن هذه التقلبات قد انعكست في أثره.

وفي هذا الموضوع يُوجَدُ داعٍ للقيام بأولِ تامُّلٍ حَوْلَ الأمر السائد لكلِّ موجود، أي حَوْل الدَّوْر، أو الزمن التاريخيِّ، الذي يأخذ مكانه فيه، فيشتملُ على جميع التلقينات الخارجيَّة التي يُمْكِن أن يتَلَقَّاها من الحادثات المعاصرة له، وقد عاش ابن خلدون في أواخر القرون الوسطى، أي في دورٍ تَمَّ فيه من الانقلابات ما هو عظيمٌ جِدًّا، سواءٌ أفي النظام الاجتماعيِّ أو في النظام العقليِّ، فقد ذَرَّ قَرْن عصر النهضة في أوربا، وعلى العكس وَقَعَ في هذا الدور بإفريقية الإسلامية انتكاسٌ عظيم فمن ناحيةٍ تُبْصِرُ انهيارَ إسبانيا الإسلامية التي كانت إجمالاً، امتدادًا للإسلام

(١) سنعود في أثناء هذه الدراسة إلى مختلف النظريات المعروضة في المقدمة، ولكن لنذكر بعد الآن أن هذا الكتاب يشتمل على : ١- محاولة في النقد التاريخي، ٢- محاولة في إيضاح الحادثات الاجتماعية إيضاحًا عامًّا. ٣- دراسة سنن التطور الاجتماعي والسياسي.

وتتويجًا له في إفريقية الشمالية، وتعاني ممالك البربر الكبيرةُ انحطاطًا عميقًا، ويطابق انقسامها ما يتزايدُ من الفوضى، وما بين الأهلين من توازنٍ تقليديٍّ يتغيَّر تغيُّرًا أساسيًّا نتيجةً لا بتلاع بَرْبرَ زَنَاتةَ من قِبَل عَرَب بنى هلال، ومن كلِّ نَاحيَةٍ تُبْصِرُ تَمَكُّنَ عناصرِ الشِّقاق والوَهْن، واكْتَنَهَ ابنُ خلدون هذا الوضع بما فيه الكفاية فتكلَّم عن دور الانحطاط الذي عاش فيه وعن الانقلاب الي عاناه العالَمُ المحيط به، قال مسيو إ.ف. غُوتْيه: « في ذاك الدَّوْر الذي عاش فيه تَلُوح خطوطُ المغرب الحديث الأولى، ويكون رسمُ القرون الوسطى ظاهرًا تمامًا، فتجعله هذه الخطوطُ في ذاك الدور المتوسط، أي في تلك العَطْفَة من التاريخ، في موضع الراصد الفَذِّ»[1].

وتكون الأدوارُ المضطربة ملائمةً لنشوء الشخصياتِ الحازمةِ خاصةً، في حَقْل العمل كما في حَقْل الفكر ويَلُوح أن غَلَيان النفوس وإضطرابَها يُسْفِرَان عن فُضُولٍ أعظمَ حِدَّةً وعن شَهَواتٍ أكثر شِدَّة، فالطموحُ يُرْهَفُ بفعل الاضطرابِ ومنظرِ انقلاب الأوضاع فَيَرْتَفِعُ إلى درجةٍ من الحِرْص يَنْدُر بلوغُه في الأدوار التي تَظْهَرُ فيه مصايرُ الناس تامةَ الارتسام في سواء مجتمعٍ هادىءٍ منظَّمٍ.

ويُذَكِّر ابنُ خلدون ببعض شخصيات عصر النهضة الإيطاليِّ، أي بالطبع المملوء تناقضًا، أي بأولئك الرجال الذين يكونون رجالَ درسٍ وفنٍّ ورجالَ حربٍ معًا، وهو قد أَبْدَى في أثناء سِلْكه، مِثْلَما أَبْدَوْا، من الطموح الجامع ومن، زمن الذَّوق الفائق في الدرس والتأمل في الوقت نفسه، ما أتاح له في فَتْرةٍ قصيرة، وفي وسطِ حياة سياسيَّةٍ مضطربةٍ خاصةً، أن يُنْتِجَ أثرًا ضخمًا يَعْرِض قسمٌ منه، أي مقدمته، جميع آيات العبقرية.

حتى إنه يُمْكِنُ أن يُعْتَقَد وجودُ مواهبَ مهَنيَّةٍ لديه، فهو على ما يساوِرُه من كُرْهٍ نظريٍّ لأنْعم الحضارة، يُبْدي في الصَّفَحات التي يتكلم فيها عنها معرفةً لصناعات زمانه بالغةً من الدقة ما لا يُظْهر معه إلى أنه لم يَشْعُرْ بفتُونها، وهو

(١) إ.ف. غوتيه: قرون المغرب الغامضة.

يُورِدُ في آخر المقدمة عددًا من القصائد والأغاني باللغة العامِّيَّة ما قد يكون واضعًا له، وقد ظُنَّ في بعض المرّات أن هذه الأغاني مُفْتَعَلةٌ، وهي مع ذلك توُجَدُ حتى في نسخةِ المقدمة الخطيَّة التي كُتِبَتْ في زمن المؤلف فتجدُها في مكتبة القَرويين بفاسَ حيث تَيسَّر لنا أن نراها.

وهل كان ابن خلدون شاعرًا بأهمية شخصيته، وبالنور الذي تُلْقِي على أثَره؟ ومهما يَكُون من أمرٍ فإن من الثابت أن سيرته تساعد مساعدةً قوية على فَهْم مقدمته وتحديدِ مَدَاها، وعلى تكوين رأيه من بعض الوجوه، وتَصْلُح سيرةُ ابن خلدون، التي صَدَّر بها أثره بنفسه، أن تكون من ناحيتها مقدمةً، أوإيضاحًا شِعريًّا، كما نستطيع أن نقول لمقدمته التي هي مَدْخَلٌ حقيقيٌّ لدراسة التاريخ.

وُلِدَ ابن خلدون بتونس في النصف الأول من القرن الرابع عشرَ (١٣٣٢)، وهو قد أخذ على عاتقه كتابةَ نسبِه في لُمحَةِ حَياتِه التي تكلمنا عنها، وقد ادَّعى أنه من سُلالة أسرةٍ عربيةٍ غنية من حَضْرَمَوْت اشتركت في الوقائع التي عَيَّنَتْ قيامَ الدول الإسلامية الأولى ثم هاجرت إلى الأندلس، وقد تَقَلَّد أجدادُه مناصبَ عاليةً في هذا البلد، ولا سيما أشْبِيلِيَّة، ما قام الأمَويون بالحُكْم، فلما سَقَط هؤلاء الآلُ بعد ذلك، ومَزَّقت الفِتَنُ مسلمي الأندلس وأدَّت إلى تراجعهم بالتدريج، هاجرت أُسْرة مؤلفنا إلى مَرَّاكِشَ في أول الأمر ثم إلى تونس.

وقام ابن خلدون بدراساتٍ بالغةِ الكمال في جامعة تونس، ويُسْهِبُ مع الزَّهْوِ فيما اتفق له من نجاحٍ مدرسيٍّ، ويُحدِّث من الشُّكر عن أساتذته، ولا سيما الفيلسوف الآب ليُّ الذي يَدْعوه «شيخَ العلوم العقلية»، ومع أنه اتَّفَقَ لمؤرخنا من الدروس كمالُها في عصره، وتشتمل هذه الدروس في الوقت نفسه على علم التوحيد والفقه والعلوم الطبيعية والفلسفة، فإنه أَتَمَّها باكرًا، وهنالك أراد دخولَ الحياة العامة، وفي ذلك الزمن كانت الأُسْرَةُ الحَفْصيَّة تملك تونسَ وطرابُلُسَ، وكان يتألف من الولايتين قُسَنْطِينةَ وبِجَاية إيَالتين يقوم بالحكم فيهما أمراءُ حَفْصيُّون، وقُلْ مثلَ هذا عن الزَّاب وبَسْكرةَ، وكان يُطلَق على هذه المجموعة اسمُ إفريقية،

وفيما وراء ذلك كان بنو مَرين يَمْلِكون البلدَ الواقع بين تِلِمْسان ومُلْوِية، وكانت الأُسْرَتان متنافستين فتقتتلان كثيرًا، وكان السلطان أبو الحسن المريني قد استولى على تونسَ نتيجةً لحملة موفَّقة قام بها في سنة ١٣٤٨ (٧٤٩هـ)، وكان هذا حَوَالي دُخُول مؤلِّفنا بابَ الحياة العامة، بَيْدَ أن القبائل العربية التي كانت قد أعانته انقلبتْ عليه، وذلك أنه أثار غضبها بأن رَفَع يدَها عن الامتيازات والرواتب التي كانت قد نالتها من الحكومة الحفصيَّة، وقد رَفَع الشعبُ التونسيُّ رايةَ العصْيان فأُكْرِه أبو الحسن على الارتداد.

ويَبْدَأ سِلْكُ ابن خلدون بين بَلِيَّةٍ إذَنْ، وكلٌّ يَعْرِف أن مثل هذه الحال صالحٌ لإنضاج الذهن، وقد أضيف إلى جميع شرور الحرب والغَزْو طاعونٌ فَقَد فيه ابنُ خلدون أباه وأمَّه ومُعْظَمَ مشايخه، ففي هذا الحين دخل في خدمة السلطان كاتبًا «صاحبًا للعَلاَمة» بدلاً من ابن عمر الذي «تَعَلَّل عليه بالاستزادة من العطاء فَعَزَله»، وهو لم يَلْبَثْ أن تَرَك بِدَوْرِه خدمة الحَفْصيين ليَقُومَ بخدمة الأُسْرَةِ المنافسة، وهنالك استُخْدِم فيما بعد في مَهَامَّ مختلفةٍ أدت إلى إقامته عِدَّةَ مراتٍ طويلةً بالجزائر حيث اشترك بالتدريج اشتراكًا فعليًا في المكايد السياسيَّة التي كان يتعاطاها زعماءُ بَرْبر ذلك الزمن وملوكهم الصُّغَراء، وقد قَضَى بعض الزمن لدى قبيلة الدَّواوِدة المهمة المرهوبة على الخصوص فانتهى إلى نيله نفوذًا كبيرًا عندها، ومما حَدَث بعد ذلك أن متعاقِبَ الحكوماتِ التي تَرْغَبُ أن تستميل هذه القبيلةَ الخَطِرَة كانت تَبْعَثُ إليها ابنَ خلدون في الغالب، ومن المهمِّ قَيْدُ هذه النقطة لإدراك نظرياته الاجتماعيَّة، وهي تَدُلُّ على أنه بفَضْل وظائفه نال باكرًا معرفةً عميقة بأحوال أهل البَدْو الذين خَصَّهم بمكانٍ كبيرٍ في فلسفة تاريخه.

وما انْفَكَّ سِلْكُ ابن خلدون الذي بدأ بين بَلِيَّةٍ وغزوٍ أجنبيٍّ وطاعونٍ، إلخ... يكون مُرْتَجاً إلى الغاية، فنراه في أربعَ عشرةَ سنةً يقضي حياةَ دِبْلُميٍّ وقطبٍ سياسيٍّ مُتَنَقِّلاً مناوَبةً في خدمة الأُسَرِ المالكة المتنافسة أو المتعادية بين أكثر الأحوال تقلبًا، وهو كما رأينا، قد قام بمهنته في خدمة السلطان الحفصيِّ بتونس

ابنًا للعشرين من عمره، ولكنه لم يَبْقَ فيها غيرَ ستة أشهر متنقلاً إلى خدمةِ الأسرة المُزاحمة التي هي بنو مَرِينَ بفاسَ، ويُسْتَخْدَم من قِبَل هؤلاء بضعَ سنين في بِجَاية ثم يُدعىَ إلى العاصمة حيث يَبْقَى عشرَ سنين، وقد كانت هذه السنون العشرُ مضطربةً إلى الغاية أيضًا، وقد مات السلطانُ المرينيُّ بعد وصول ابن خلدون إلى فاسَ بزمن قليل، فكان هذا بدءَ سلسلةٍ من الفِتَنِ والمكايد التي حِيكَتْ حَوْل الوِصاية على العرش، ويَظْهَرُ أن ابن خلدون اهتزَّ اهْتِزَازَ هُيَامٍ في ذلك الحين راجيًا، كما هو واضح، أن يَرْتَقي تحت جُنْح هذه الاضطرابات، وأخيرًا تَفْسَدُ الأمورُ، فقد حاك مؤامرةً مع زعيمٍ حفصيٍّ، أي أمير بِجَاية السابق، ويُكْشَفُ أمرُه، ويُلْقى في السجن حيث لَبِثَ سنتين، ويَذْهَبُ رأيٌ شائعٌ بعض الشيوع إلى أنه فُكِّرَ في المقدمة وأُعدَّت في عامى السجن هذين، فهذه الروايةُ كثيرةُ القُرْب من الصحةِ بالنسبة إلى القسم السياسيِّ من هذا السِّفْرالذي يَلُوح أنه كُتِبَ للإجابة عن الأسئلة: كيف تقوم الدولة؟ وما أصلُ البيوت المالكة؟ وكيف ينشأ البيت المالك؟ كان يجب على الخصوص أن تعْلق هذه المسائلُ، في ذلك الزمن أكثرَ مما في أيِّ زمنٍ آخرَ، بقَلْب مؤلِّفنا الذي كانت تَظْهر عليه جميعُ علامات الطموح الجامح فيُعَاني نتائجَه، وهو يقول بعد زمنٍ، حين يُعَلِّق على نوائبه: إنها نتيجةُ " كونه يَسْمُو بُطغْيان الشباب إلى أرفعَ مما كان فيه" وكان من الممكن أن يَدُوم سَجْنهُ زمنًا طويلاً أيضًا، حتى إنه كان يُمْكِن أن ينتهيَ بفاجعةٍ، ومن حُسن الحظِّ كثيرًا أن خُلِّيَ سبيلُه عَقْبَ تغييرٍ وَقَعَ في المُلْك، ولكنه لم يَبْقَ بفاسَ، فقد رَكِبَ البحر في سنة ١٣٦٢ مسافرًا إلى الأندلس حيث أُحسِنَ قبولُه من قِبَل سلطان غَرْناطة، وهو لم يَلْبَثْ أن أُرْسِل سفيرًا إلى أَشْبِيلِيَّة لدى الملك الطاغية بِطْرُه، وقد راق هذا الملكَ فاقترح عليه أن يَدْخُل في خدمته عارضًا عليه أن يعيد إليه تُراث أجداده الذي كانوا يَمْلِكونه في أَشْبِيلِيَّة ويعود إلى إفريقيَة، ويتوجَّه إلى بِجَاية بعد أن أقام بالأندلس ثلاث سنين، ولم يُبَيِّن سببَ رجوعِه، ولِذَا فإننا نقتصر على الفَرْضيَّات، فنقول: إن من الممكن جِدًّا أن يكون هذا

السببُ من النظام العامِّ، وذلك أن ابن خلدون حَمَل، فيما حَمَلَ، أحكامًا في حال الأندلس الإسلاميِّةِ الاجتماعيِّ، فأبصر أن الأهلين هنالك أَذِلَّةٌ، وأنهم مؤلَّفون من زُرَّاعٍ عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم تِجَاه ابتزاز السلطة للأموال، وأن هؤلاء الناس فقدوا جميعَ مايُقَدَّر وجودُه لدى أهل البدو والجبال بإفريقية من صفات الأَنَفَة والاستقلال، وحاصلُ الأمر أنه إذْ كان قد أَلِفَ اضطرابَ الحياة السياسيَّة بإفريقية الشمالية إيلافًا ملائما لمجازفات ذوي الطموح، فإن من المحتمل أن يكون قد رأى أن الأندلس ذاتَ مستقبلٍ له مضافًا إلى ذلك كَوْنُ شعورِه السياسيِّ وبعثتُه لدى ملك قَشْتالة وَجَبَ أن يكونا قد أَثْبَتَا له أن وضْعَ المملكة الإسلامية الأخيرة بالأندلس صار مؤقتًا.

بَيْدَ أنه كان يُوجَدُ سببٌ آخرُ أكثرُ مباشرةً لرجوعه إلى إفريقية، وذلك أن الزعيمَ الحفصيَّ الذي كان قد إئتمر معه وسُجِنَ معه في فاسَ صار أميرَ بِجَاية، فمن المحتمل أن يكون قد استَدْعَى ابنَ خلدونَ، ومهما كان الحالُ، فَوْرَ وصوله إلى بِجاية، فرُفِعِ ابن خلدون إلى أعلى المناصب وصارَ وزيرَ الأمير الأول "أي حاجبًا"، ولكن المصير يَصُول على ابن خلدون، فهو لم يَكَدْ يُخْتارُ لأعلى مناصب الدولة حتى قُتِلَ سيدُه من قِبلَ ابن عمه سلطان قُسَنْطِينة الذي استولى على بِجَاية في سنة ١٣٦٦، فيُقْطع سلكُ ابن خلدون من جديد.

وهنالك غادر البَلاَطاتِ وذهب ليُقيم بِبَسْكَرةَ حيث يجُدِّد سابقَ صلاتِه بالقبائل العربية من بني هلال، وهو لِماَ كان يَتَمَتَّع به من نفوذٍ في هذه القبائل، يصيرمِثْلَ وسيطٍ مُعَيَّنٍ بينها وبين مختلف البيوت المالكة التي كانت تَجْمَعُ فرسانًا لها بين هؤلاء المفطورين على الجندية، حتى إن مما كان يَحْدُث أن يَرْأس هذه العِصَابات فيشترك في كثيرٍ من المعارك[1]، وقد دام هذا القسمُ من حياته ثماني سنين، كان ابنُ خلدون في أثنائها ضَرْبًا من قادة الجنود المأجورين في خدمة كثيرٍ من البيوت المالكة، لا سيما بنو عبد الواد بِتِلْمسَان ثم بنو مَرين بفاسَ مُجَدَّدًا، ولكن

(١) يوجد في المقدمة فصل حول التنظيم الحربي وسوق الجيوش وقيادتها.

ابن خلدون يَرْوِي لنا أن الوساوس ساورت أميرَ بَسْكَرة بغتةً حول ما تَمَّ له من نفوذٍ نامٍ فى القبائل العربية بتلك المِنْطَقة، فاستعدَّ لإساءة معاملته، فلما أَشْعِرَ مؤلِّفُنا بذلك اضْطُرَّ إلى مغادرة بَسْكَرَة غيرَ مُفَكِّرٍ في الرجوع.

وكان القسمُ الأول من حياة ابن خلدون السياسيَّة سلسلةً من مكايد البلاط التي لم يُكْتَبْ لها توفيقٌ ويَلُوح أن القسم الثاني مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا في نظريته حَوْلَ السلطة السياسيَّة، فمصدرُ هذا السلطانِ، كما يقول ابن خلدون، عن شمال إفريقية على الأقلِّ، هو اندفاع القبائل البدوية الحسنِة التَّجَمُّع والتي غَدَت مرهوبةً اندفاعًا دَوْريًّا قاصدةً الاستيلاء على المُدُن أو الدول التي وَهَنَتْ، ولِذَا فإن ابن خلدون يكون قد استقَّر بمنابع السلطان، وتعهَّد صابرًا صداقةَ جَمْعٍ من القبائلِ مرهوبٍ على الخصوص، فوجب أن يكون أصلُ هذه القبائلِ العربيُّ قد منحها زيادةَ نفوذٍ فغدا قائدًا مأجورًا عندها، ومن المحتمل أن يكون قد أَبْصَر انفتاحَ طريقِ السلطان مُجَدَّدًا عندما لاح عَداءُ أمير بَسْكَرة يُفْسِدُ كلَّ شيءٍ مُجَدَّدًا، أو لايزال يُوجَدُ هنا غُفُولٌ من قِبَل ابن خلدون، وهل ائتَمَر، وهل بدا مُهَدِّدًا؟ تَلْزَم سيرةُ ابن خلدون المكتوبة بيده جانبَ الصمت حَوْلَ هذه النقطة أيضًا، غير أن تَحوُّل الأمير يُوحِي إلى الذهن بأنه خَشِيَ، عن خطأ أو صواب، أن يَرَى اهتزازَ القائدِ المستأجرِ منافسًا له.

ومن شأن هذا الهَرج والمَرج الخَطِير الهادِر الذي دام عشرين عامًا أو يُتْعِبَ ابنَ خلدون دائمًا، فانْزَوى في قلعةٍ صغيرة بجوار تِيَارِت حيث انقطع للبحث أربَع سنين، فهناك أَلَّفَ قسمًا كبيرًا من تاريخه العامِّ كما وَضَع المقدمةَ، وكان قسمٌ يذْكر من ذلك نتيجةَ تأمُّلٍ وتعليمٍ لَمِا لاقي من إخفاق.

وفي ختام السنين الأربع التي قضاها في ذاك المنزل، في ختام الأعوام الأربعة التي هي راحةٌ لحياةٍ بالغةِ الارتجاج حتى ذلك الحين، عاد ابن خلدون إلى تونسَ مَدْعُوًّا، كما يقول من قِبَل الأمير الذي كان يَمْلِك هذه المدينة.

وسيرةُ ابن خلدون التي كتبها بقلمه مُوجَزَةٌ جدًّا، وفي هذه السيرة يَتَجَلَّى

طابعُ الفكر الشرقيِّ، أو الفكر الخَلِيق بالقرون الوسطى على العموم، حَوْلَ الإخبار، فهو يَرْوِي الوقائع، لا الأفكارَ، وإذا ما اقتضى الحكمُ، بكلِّ وضوحٍ أن يُسْبَق بتأمُّلٍ ونِقَاشٍ لم يَقِف الإخبارُ قطُّ عند حَدِّ التعدادِ والتحليل لجميع هذه الأفكار التي تسبق العمل، بل يَذْكُرُ العلةَ المُوجبةَ لها أيضًا، وهكذا فإن ابن خلدون لم يُحدِّثنا عن أفكاره قطُّ عندما رَوَى لنا حوادث حياته البارزةَ، ولاتُخْبِرُنا صفحة من ذلك بما يَرْتَبِط في تأملاته الشخصية، ولا تُظْهِرُ انعكاسَ صُرُوفِ الدهر التي انتابته على شخصه، ولا بُدَّ لدراسة سيرته البالغةِ الإمتاع من كلِّ ناحية، من البدء بالتقطيع، ثم المقابلةِ مناوبَةً ومقارنة، وذلك كما حاولنا فعله أحيانًا، بين أدوار حياته المتعاقبة وأثرِه، حتى نُجَرِبَ إلقاء نورٍ على هذا وذاك، فنُظهِرَ الروابطَ التي تَجْمَع بينهما.

وهكذا فإننا نعلن أن رجوعَ ابن خلدون إلى تونس نتيجة طموحٍ غير تائبٍ في مؤلِّفنا الراغبِ في استئناف حياته السياسيَّة، وهو يَرْوِي لنا أنه اسْتُدْعِيَ إلى تونسَ من قِبَل الأمير المُتَشَوِّف إلى الكمال في علوم التاريخ، ولِذَا فالعالِمُ، لا القطبُ السياسيُّ، هو الذي يخاطَبُ في هذه المرة، وقد كُتبت سيرتُه بعد تلك الحوادث بزمنٍ، فهل أَذْعَن ابنُ خلدون بالحقيقة، لإغراءات مُدَالِيَةٍ للعالِم، أو انقادَ لعزلةٍ وجعل من الضرورة فضيلةً بعد أن حاول تمثيل دورٍ سياسيٍّ؟ بقيتْ هذه النقطةُ غامضةً، ومهما يكن من أمرٍ؛ فإن حياته تكون أكثرَ هدوءًا بعد الآن، وفي تونسَ واصَلَ كتابةَ أثره التاريخيَّ، ولا سيما "تاريخ البربر" الذي طلبه منه مولاه الجديد.

بَيْدَ أن الحياة السياسيَّة تداوم على عَصْفها في المغرب الأدنى، ويَظْهرُ أن ابن خلدون الذي رَضيَ بدَوْرِ العالِم لم يَجِد الهدوءَ، الذي كان يأمل أن يكون له حقٌّ فيه أخيرًا بإفريقية الشمالية المضطربة كثيرًا، فالتمس السماح له بالسفر إلى مكة قيامًا بالحجِّ، والواقعُ أنه كان يَقْصدُ الاستقرارَ ببلدٍ أقلَّ اضطرابًا، فوَصَل إلى القاهرة في ٥ من فبراير سنة ١٣٨٣، فأثار منظُر هذه المدينة في نفسه إعجابًا أعرب عنه بالكلمات الحماسية الآتية، وهي:"فرأيتُ حضرةَ الدنيا، وبُسْتانَ

العالمَ، ومَحْشَرَ الأمم، ومَدْرَجَ الذَّرِّ[1] من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسيَّ المُلْك، تَلوح القصور والأوَاوينُ في جَوِّه، وتَزْهَرُ الخَوَانِك[2] والمدارسُ بأفاقه، وتضيئُ البُدورُ والكواكبُ من علمائه، قد مَثَلَ بشاطىء بحر النيل نهرِ الجنة، ومدفعِ مياه السماء، يَسْقِيهم النَّهَلَ[3] والعَلَلَ[4] سَيْحُه[5] ويَجْبي إليهم الثمرات والخَيْراتِ ثَجُّه[6]...»، ومن الصواب أن لاح السيد طه حسين[7] في دراسته عن ابن خلدون أن منظر القاهرة والحضارةِ المصرية الذي كان شاملاً لجميع صفات حضارة المُدُن الخالصة، ولكن مع ثباتها وعدمِ تهديدها بالخراب دائمًا، مما يجب أن يكون قد حَمَلَ الفيلسوف التونسيَّ على التأمل في مدى نظرياته التاريخيَّة فأوحى إليه ببعض انتقاداتٍ حَوْلَ هذا الموضوع، ولكنَّ من الصواب أن يلاحَظ أن المقدمة كانت قد كُتِبَتْ منذ زمن طويل.

ويستقر ابنُ خلدون بالقاهرة، ويتَّصل بعلماء البلد، ولسُرْعانَ ما تُوَلِّيه الحكومةُ المحلية منصبًا قضائيًّا دينيًّا رفيعًا، فقد عُيِّنَ قاضيًا للمالكية في هذا المِصْر، ولكنه حتى في هذا المَنْصِب، وجَدَ خِصامًا داويًا، وذلك أنه جَعَل لنفسه أعداءً بسبب شدة طبعه وصلابة خُلقُه، فقد أراد أن يُبْطِل، أو يَمنع كثيرًا من سوء الاستعمال الذي كان يُغْضِي عنه أسلافهُ، وترتفع شِكاياتٌ عنيفةٌ من كلِّ ناحية، ويحَصُل أعداؤه على عَزْله، وهناك يَقْصِد مكةَ حاجًّا، فلما عاد رُفِعَ مُجَدَّدًا إلى المَنْصِب القضائيِّ الرفيع الي كان قد عُزِل منه، ويَفْقِدُ هذا الَمْنصِبَ أيضًا، لكنه مع ذلك يَشْغَلُه من جديدٍ عِدَّةَ مرّات، ويُبْتَلَى بمصيبة عظيمة في أثناء ذلك، فقد هَلَكت أسرته التي كان عليها أن تَلْحَق به، في سفينة غَرِقَتْ عند سواحل طرابلس، وتَعْتَرِي بعضَ مترجِمي ابن خلدون حيرةٌ من الصَّلابة التي يَلُوح أنه أظهرها عند سماعه

(١) الذر: صغار النمل.
(٢) الخوانك، جمع خانكة أو خانقاه: مسكن للصوفية المنقطعين للعبادة والأعمال الصالحة.
(٣) النهل: أول الشرب.
(٤) العلل: الشرب الثاني، فيقال:» علل بعد نهل».
(٥) السيح: الماء الجاري على الأرض.
(٦) الثجُّ: الصَّب الكثير.
(٧) طه حسين، ابن خلدون، رسالة في الآداب، باريس، سنة ١٩١٨م.

خبرَ هذه المصيبة، ويَظْهَر أن هذا من ناحيته، علامةُ رَصانةٍ وثباتِ جَنَانٍ معًا، ومما يَجْدُر ذكْره أن يُرى بالحقيقة، مقدارُ قِلةِ تناول ذاك الأمر لجميع الحوادث الشاقة في حياته، وهو على هذا الوجه يَرْوِي في بِضْع كلماتٍ نوائبه السياسيَّةَ المتعاقبة كما يَرْوي خبرَ اعتقاله الطويل الأليم وجميعُ هذا يطابق جيدًا ما يُمكِن افتراضُه في هذا العالمِ النظريِّ من قوة نَفسٍ وروح قِتال.

ولكنه كُتِبَ على ابن خلدون ألا يَفْرُغَ من صُرُوف السياسة حالاً، حتى إنه في مَشِيبه يُرى اشتغاله في حوادثَ تاريخيَّةٍ عظيمة (سنة ١٤٠٠)، وذلك أن تيمورْ لنك أتى للاستيلاء على الشام وتهديد دمشق، ويتوجَّه سلطان القاهرة مع جيشه إلى الشام كَيْمَا يقاتلِ الفاتحَ المغْولّي ويأتى بكثيرٍ من كُبراء المملكة، ويكون ابنُ خلدون بينهم، ويحاصَرُ ذاتَ وقتٍ بمدينة دمشق مع آخرين من عِليَة المصريين، ويعْزِمون على الفِرار، وَينْزلون في جُنْحِ الليل بحبالٍ من فوق الأسوار، ولكنهم يُمْسَكُون ويؤتَى بهم إلى تيمورلنك، فيدْعُوهم هذا إلى الغَداء في خيمته، وَيحضُر طعامَهم، وكان يَرْقُبُهم بانتباهٍ، وكان يَسُودُ الجميعَ صمتٌ عميقٌ، وكان المدعوون يَعْرفون ما اشتهرَ به هذا الأعرج المرهوب من قسوة فيرتجفون خوفًا على حياتهم، وَيُنقِذُ ابن خلدون الموقف، وقد قال:" كنتُ أُصَوِّبَ نحو السلطان نظري، فإذا نظرَ إلىَّ أطرقتُ، وإذا أَغْضَى عنِّي عُدْ تُ فنظرتُ إليه وحَدَّقْتُ.."، وكان السلطان قد أَبصَرَ في ابن خلدون غريبًا عن مصرَ لمحافظته على الزِّيِّ المغربيِّ وعلى عِمامة أهل المغرب الصغيرة، فلما فُرِغَ من الطعام وصار الجوُّ أكثر أُسًى مقدارًا فمقدارًا نَهَضَ الشيخُ والتفت إلى تيمورلنك وخاطبه بكلامٍ جميل أَظهر فيه عِلْمَه بنسب تيمورلنك وتاريخه، وتُعْطِي جُرْأَةُ ابن خلدون ثمرتها الأولى، فقد وقع كلامُه عند السلطان موقعَ الرضًا؛ فأخذ يسأله قاطعًا السكونَ المملوءَ وعيدًا كما كان يلاحِظ، وكان ابنُ خلدون مُوَفَّقًا فى أجوبته عن الأسئلة التى وجَّهها إليه العاهل توفيقًا طلب هذا العاهل معه أن يبقى في خدمته لِمَا كان من تأثُّره بهيئته المَهِيبة وجلالِ مظهره وعلمه الواسع، وقد وعده ابن خلدون بذلك، ولكنه يقول: إنه لا بُدَّ

له من الذهاب إلى القاهرة قبل كلِّ شيء بحثًا عن مكتبته التي" ما كان ليستطيعَ العيشَ بغيرها"، وهكذا يَدَعُه تيمورلنكُ يسافر هو وأصحابه، حتى إنه قَدَّم إليه حَرَساً، وهكذا يُوفَّقُ في النجاة، فقد استولت كتائب المغُول على دمشقَ بعد بضعة أيام، وانْقَضَّت على أهليها مُحْدِثةً فيهم مذبحةً من أعظم ما عَرَف التاريخ، فذاك آخرُ حادث مؤثرٍ في حياة فيلسوفنا، وقد عاش بعد ذلك في القاهرة مُتَقَلِّدًا، في فواصَل، مَنْصِبَ قاضي المالكية حتى وفاتِه (١٤٠٦م).

obeikandl.com